بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم:16-36].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النّبي صلَّى الله عليه وسلم قال: ((**كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**))[رواه البخاري].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلم قال: ((رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ عَيْنِي)) [رواه البخاري].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ)) [رواه البخاري].

هذه هي الخطبة الثَّامنة عشرة في سلسلة: "قرأت في كتاب"، أختار لكم فيها فوائد منثورة، في كتب قرأتها أو بعضها؛ ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

)السَّيِّد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصَّلاة والسَّلام(

وهذه الخطبة مُهداة للإخوة المسيحيين والأخوات المسيحيات في هذه البلدة خاصة، وفي سائر المعمورة عامَّة، في ذكرى ولادة سيِّدنا عيسى عليه السَّلام.

قرأتُ في كتاب عنوانه: "الحوار الإسلامي المسيحي" للدُّكتور الشيخ بسام عجك، كلاماً نافعاً في المسيحية والإسلام، فأحببتُ أن أُطلِعَكم على بعض ما جاء فيه.

المسيح لغةً: مشتق من المسح، وهو إِمْرَار اليد على الشَّيء السَّائل، مثل: مسح الرَّأس من الماء، والمسيح لَقَبٌ لسيِّدنا عيسى عليه السَّلام وليس اسماً له.

ويرْجِع لقبُ المسيح إلى أحد الطقوس في الشَّريعة اليهودية، وهو المسح بنوع من الدُّهن بقصد التَّقديس والتَّكريس، والاختيار لوظيفة عظيمة أو رسالة سامية.

والمسيحية كلمة أُطلِقَت على أتباع المسيح عليه السَّلام في القرن الثَّالث الميلادي في مجمع نيقية سنة 325م.

وقد وردت كلمة المسيح في القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً، وتوجد في القرآن الكريم سورة من الطِوال سميت باسم عائلة السَّيد المسيح عليه السَّلام وهي سورة آل عمران، وفيه سورة باسم والدة السَّيد المسيح عليه السَّلام وهي سورة مريم.

وورد اسم السَّيدة مريم بنت عمران في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً كلها تتحدث عن العذراء بكل التَّقدير والتَّبجيل.

وعرض القرآن لولادة سيّدنا المسيح عليه السَّلام بدءاً من البشارة وانتهاءً بمجيء أمِّه به تحمله إلى قومها.

ثمَّ ذكر القرآن الكريم معجزاته عليه وعلى نبينا أفْضلُ الصَّلاة والتَّسليم، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ونزول المائدة وتصوير الطِّين والكلام في المهد بإذن الله تعالى.

وتحدَّث القرآن عن رسالة سيّدنا عيسى عليه السَّلام وعن عبوديته لله تعالى وعن نهايته برَفعِه إلى الله تكريماً وحمايةً.

كما وتحدَّث القرآن الكريم عن عائلة المسيح وأمِّه ورسالته؛ تكلَّم عن الإنجيل الذي أنزله الله تعالى عليه نوراً وهدىً وموعظةً للمتقين.

وتكلّم عن الحواريين؛ تلامذتِه وأنصارِه الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا دينه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:111].

وخاطب القرآن أتباع سيّدنا المسيح وأتباع سيّدنا موسى بأجمل الألفاظ وألطفِ العبارات ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، حيث وردت في واحد وثلاثين موضعاً:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران:64].

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:113-115].

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:199].

وكما وصف القرآن صالحي أهلِ الكتاب ومؤمنيهم بالخير؛ عاب على مَنْ حَرَّف دينه منهم واجترأ على الله ورسوله.

تماماً كما يحمدُ اللهُ تعالى للمؤمنين من أمةِ سيّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم إيمانهم، ويعيب على فاسقيهم فسوقَهم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النِّساء:171].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:77].

ومِثْل حديث القرآن تحدَّث سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم عن سيِّدنا عيسى عليه السَّلام وعن المسيحية والمسيحيين، فعن عبادة رضي الله عنه، عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلم قال: **((مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ محمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الْعَمَلِ))** [رواه البخاري].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **((أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ))** [رواه البخاري].

ويوصي رسول الله صلَّى الله عليه وسلم أمَّته بأَتْبَاع سيِّدنا عيسى عليه السَّلام خيراً، امتثالاً لأمر القرآن: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:8].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((إذا افتتحتم مصرَ فاستوصُوا بالقِبْطِ خيراً، فإنَّ لهم ذِمَّةً ورحماً))** [رواه الحاكم].

ويقول صلَّى الله عليه وسلم: **((من آذى ذميًّا فأنا خصمُه، ومَنْ كنتُ خَصْمَه خَصَمْتُه يوم القيامة))** [رواه الخطيب في تاريخ بغداد].

ويقول صلَّى الله عليه وسلم: **((أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))** [رواه أبو داود].

وزاد البيهقي: **((وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلم بِإِصْبَعِهِ إِلَى صَدْرِهِ: أَلاَ وَمَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا))** [رواه البيهقي في السنن الكبرى].

وفي ظلال هذه الآيات والأحاديث عاش المسلمون والمسيحيون في بلادهم يتجاورون ويتعاونون على ما فيه الخير تحت قاعدة: (**لهم ما لَنا، وعليهم ما علينا**).

وأُحِبّ هنا أن أنقل لكم شيئاً من ظلال هذه التَّعاليم:

قال أَبُو يُوسُف في كتابه الخراج موصياً الخليفة هارون الرَّشيد بتفقُّد أحوال أهل الذِّمة: (وقد ينبغي يا أمير المؤمنين -أيَّدك الله- أن تتقدم فِي الرِّفق بأهل ذمة نبيك وابن عمِّك محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتَّقدم لهم حَتَّى لا يُظلَموا ولا يُؤذَوا ولا يُكلَّفوا فوق طاقتهم ولا يُؤخَذ شيء من أموالهم إلا بحقٍّ يجب عليهم).

وقال فقهاء المالكية كما في كتاب "الفروق": (إنَّ عَقْدَ الذِّمة يوجِب حقوقاً علينا لهم، لأنَّهم في جوارنا وفي خفارتنا وذمَّة الله تعالى وذمَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلم ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك، فقد ضيّع ذمَّة الله تعالى وذمَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام).

وكذلك حكى ابن حزم في كتابه "مراتب الإجماع": (أنَّ من كان في الذِّمة وجاء أهلُ الحرب إلى بلادنا يَقصُدونه وَجَبَ علينا أن نخرُج لقتالهم بالكراع والسِّلاح ونموت دون ذلك صوناً له).

كتب سيِّدنا خالد عهداً لأهل الحيرة -وهم من أهل الكتاب- وأقرَّه عليه أبو بكر الصِّدِّيق -رضي الله عنهما- جاء فيه: (وجعلت لهم: أيُّما شيخ ضَعُفَ عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهلُ دِينه يتصدَّقون عليه طَرَحتُ جزيته وعِيلَ من بيت مال المسلمين وعيالُه ما أقام بدار الهجرة ودارِ الإسلام) [الخراج لأبي يوسف].

عن أبي بكرة قال: (مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بباب قومٍ وعليه سائل يسأل -شيخ كبير ضرير البصر-، فضرب عمر عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:60]، والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضُرَبَائه).

ولو ذهبنا نعدّ أو نحصي النُّصوص والوقائع التي توصي بأهل الكتاب خيراً في الحكم الإسلامي لضاق بنا المقام.

أيها الإخوة:

هذه هي تعاليم الإسلام في معاملة أهل الكتاب؛ إذ لا خوفٌ عليهم في أيِّ مجتمع يتفيأ ظلال الإسلام، إنَّما الخوف كل الخوف من أقوام ينشرون الذُّعر في القلوب، ويفرقون بين المجتمعين باسم الأقلِّيات أو الطَّوائف أو المغايرين بالرَّأي أو الاعتقاد..، وإنَّما الخوف كل الخوف ممن ينشر الظُّلم أو يرعاه، ينشر الفساد أو يرعاه.

أيها الإخوة:

هذا شيء ممَّا قرأتُ عن السَّيِّد المسيح عليه السَّلام.

أخرج ابن مردويه عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يقول الله عزَّ وجلَّ: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.

وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

والحمد لله رب العالمين